بمناسبة ذكرى شوقي

شوقي وتاريخ مصر

للاستاذ أحمد أحمد بدوى

كان لتاريخ مصر القديم ، وما خلفه بنوها من آثار خالدة ما بقى الزمن ، أثر بالغ فى نفس شوقى ، ملأها بالإكبار والإعجاب بعقدرة المصريين القدماء ، وما بلغوه فى ميادين الحضارة من رفعة ونهوض ، وبدا هذا الأثر واضحاً جلياً فى شعر شوقى ، فهو لا يكاد يذكر مصر القديمة إلا محاطة بهالة من الإجلال والتكريم ، وهاهو ذا يستقبل طياراً وافداً على مصر ، فيوصيه بأن يؤدى لمصر ما هى جديرة به من تعظيم وإكبار فيقول :

يا راكب الريح ، حى النيل والحرما وعظم السفح من سيناء والحرما
وقف على أثر مر الزمان به فكاد أثبت من أطواده قمما
واخفض جناحك فى الأرض التى حملت
موسى رضيعا ، وعيسى الطهر منفطما
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة وبينت للعباد السيف والقلما
وشرفت بملوك طالما اتخذوا مطيهم من ملوك الأرض والخدما
هذا فضاء تلم الريح خاشعة به ، ويمشى عليه الدهر محتشما

ونظم قصيدة كبرى ألم فيها بالحوادث الكبرى التى ألمت بهذا الوادى العزيز ، فكان إذا مر بمصر من عصور المجد والازدهار ، امتلأ فخراً وتيها ، ومضى يسجل هذا المجد فى أسلوب تملؤه الحرارة وقوة الحياة . وهاهو ذا ، فى تلك القصيدة ، يتحدث عن عصر بناة الأهرام فيقول :

وبنينا ، فلم تحل لبان وعلونا ، فلم يجزنا علاء
وملكنا ، فالملك كون عبيد والبرايا بأسرهم أسراء
قل لبان بنى فشاد فقالى لم يحز مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تنقل الأجيال شما وأن تنال السماء
أجفل الجن عن عزائم فرعو ن ، ودلت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنشـ ـأ عصر ، ولا بنى بناء

فإذا مر بمصر مظلم امتلأ شعره بالأسى على ما حل بالوادى من تدهور وانحلال ، ومضى يتلمس العظة من حوادث العصر ، فها هى ذى مصر وقد داس حماها الرعاة تضعر فى نفسها الشر ، ويتجمع بنوها حول لواء زعيمهم ، ليخرجوا على ظلم العدو وقسوته ، ويستخلص شوقى الحكمة من حوادث ذلك العصر فى قوله :

إن ملكت النفوس فاتبع رضاها فلها ثورة ، وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر ، فكيف الخلائق العقلاء

وهكذا يمضى شوقى فى تلك القصيدة متنقلا من عصر إلى عصر ، حتى انتهى به الطاف إلى العصر الحديث ، يرسم الخطوط البارزة فى تاريخ هذا الوطن ، ويحدثنا فى قوة عن شعوره إزاء هذه الحوادث العنيفة .

وعند ما وقف شوقى أمام النيل ، فأنشأ هذه القصيدة الخالدة التى بدأها بقوله :

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق

أخذ يستعيد بخياله ما قام على ضفتيه من حضارة ، وما شيد على جانبيه من آثار المجد ، وهنا يستوقفه ما يرى من أن قدماء المصريين عبدوا النيل ، فيرى هذه العبادة تنم على ما عرفوا به من وفاء ومروءة ، وعلى ما للنيل جدير به من الحب والتقدير ويحدثنا عن ذلك شوقى فى قوله :

دين الأوائل فيك دين مروءة لم لا يؤله من يقوت ويرزق
لو أن مخلوقا يؤله لم تكن لسواك مرتبة الألوهة تخلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة إن العبادة خشية وتملق
دانوا ببحر بالمكارم زاخر عذب المشارع مده لا يلحق
متفيد بعهوده ووعوده يجرى على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادى الحياة كريمة من راحتيك عميمة تتدفق
وإليك بعد الله يرجع نحته ماجف أو مامات أو ما ينفق

ويأخذ شوقى فى الحديث عن حكمة الفراعنة وأسرار عقائدهم ، وعن هذه الهياكل المنثورة على ضفتى النيل ، وهنا يتجلى إعجاب شوقى بتلك الهياكل الشامخة ويصفها أروع وصف وأخلده ، ويصور الفناء عاجزا أمام جلالها ، لا يستطيع أن يهتدى إلى

مكان ينفذ إليها منه ، واستمع إلى شوقى حين يقول فى تلك القصيدة :

ولن هيا كل قد علا البانى بها … بين الثريا والثرى تتنسق
منها المشيد كالبروج ، وبعضها … كالطود مضطجع أشم منطق
جدد كأول عهدها ، وحيالها … تتقادم الأرض الفضاء وتعتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به … تعب ، ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى … ما يعتلى منه وما يتسلق

ويصور الخيال لشوقى تلك المواكب الفخمة المهيبة ، يزيد من جلالها مقدم فرعون فى جنده وحاشيته ، فهذا موكب من مواكب النصر ، آب فيه فرعون بجنده منتصرا سعيدا بنصره ، وهذا موكب تحتفل فيه البلاد بوفاء النيل ، وتلك مواكب الحج يقدم فيها الحجيج إلى طيبة من كل فج عميق ، ولندع إلى شوقى يصف لنا أحد هذه المواكب فى قوله :

كم موكب تتخايل الدنيا به … يجلى كما تجلى النجوم ، وينسق
فرعون فيه من الكتائب مقبل … كالسحب قرن الشمس منها مفتق
تعنو لعزته الوجوه ، ووجهه … للشمس فى الآفاق عان مطرق
آبت من السفر البعيد جنوده … وأتته بالفتح السعيد الفيلق
ومشى الملوك مصفدين ، خدودهم … نعل لفرعون العظيم ونمرق
مملوكة أعناقهم ليمينه … يأبى فيضرب ، أو يمن فيعتق

وفى تلك القصيدة يتحدث شوقى عن الأديان التى عرفتها مصر ، التى نبت فيها أصل الحضارة ، وانبثق نور المدنية ، فكانت المهد الذى ولدت فيه الحكمة ، وترعرع فيه العلم ، وتأصل فى نفوس بنيه الدين .

ويبدع شوقى أيما إبداع عند ما يقف أمام صفحة من صفحات تاريخ المجد المصرى القديم ، ويصل فى وصفها إلى أبعد الغايات وأسماها ، والحق أن تلك الصحائف الخالدة من تاريخ مصر ، والناطقة بمجدها القديم وهى تلك الآثار المنثورة هنا وهناك قد وجدت صداها فى شعر شوقى ، فأبدع وأجاد فى وصفها وهاهو ذا يقف أمام الأهرام فيقول :

قل للأعاجيب الثلاث مقالة … من هاتف بمكانهن وشاد
لله أنت ، فما رأيت على الصفا … هذا الجلال ولا على الأوتاد
لك كالمعابد روعة قدسية … وعليك روحانية العباد
أسست من أحلامهم بقواعد … ورفعت من أخلاقهم بعماد

أما أبو الهول فقد أفرد لمناجاته قصيدة طويلة أفرغ فيها ماس به من خواطر وهو يقف أمام هذا التمثال الخالد الغامض ، فسأله عن هذا البقاء المتطاول وإلى أية غاية ينتهى :

إلام ركوبك متن الرما … ل لطى الأصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا فى القرو … ن ، فأيان تلقى غبار السفر
أبينك عهد وبين الجبا … ل ، تزولان فى الموعد المنتظر

ويسأله عن سره الذى يخفيه بين جنبيه ، وقد تحير فيه وضل من بدا من حضر ، ثم يمضى فى سؤال أبى الهول عما رآه من أحداث وما شاهده من العبر :

تحدث فقد يهتدى بالحديث … وخبر ، فقد يؤنسى بالخبر
ألم تبل فرعون فى عزه … إلى الشمس معتزيا والقمر
ظليل الحضارة فى الأولين … رفيع البناء جليل الأثر
يؤسس فى الأرض للغابر … ين ويغرس للآخرين الثمر
وراءك ما راع من خيل قمبيز … ترمى سنابكها بالشرر
جوارف بالنار تغزو البلا … د ، وآونة بالقنا المشتجر

ويظل يسائله عن كبار هذه الأحداث حتى ينتهى إلى العصر الحديث فيطمئن على مصير مصر التى تيقظ أبناؤها ومضوا يطلبون كبار الأمور وجلائل المعالى .

ومن أجل الآثار التى وقف عندها شوقى ، واستوحى لديها عظمة تاريخ هذا الوطن قصر (أنس الوجود) بأسوان ، وقد أجاد فى وصفها ووصف ما أوحت به إليه من خواطر شتى فى تاريخ مصر القديم ، ولا زلنا نحفظ لشوقى قوله فى وصفها :

رب نقش كأنما نفض الصا … نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت … أعصر بالسراج والزيت وضا
وخطوط كأنها هدب ريم … حسنت صنعة وطولا وعرضا
وضحايا تكاد تمشى وترعى … لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها … عزمات من عزمة الجن أمضى
ومقاصير أبدلت بفتات الـ … مسك تربا ، وباليواقيت قضا

وقد أثارت فيه رؤية هذا القصر ذكريات من تاريخ مصر ، فأخذ يتساءل من هذا الملك المتيد ، وما كان له من مجد ، ومن